

دمشق 21 تشرين الثاني 2021

الاغتراب والهوية

احترفت يوماً تمويه الحنين بأسماء مختلفة، ألفظها على عجل كمن يعترف بتهمة. لم أخش يوماً شيئاً كقلبي! أنكرته ما استطعت منذ أن ركبت سيارة الأجرة باتجاه المطار لم ألتفت للخلف. ست سنوات من التحجر ظننت فيها أنني نجوت من وحش العاطفة لتوقظه اليوم زينة الميلاد! الشوارع ملونة تملأها الأضواء وأنا أرثدي خطوتي الرمادية صوب قهوة جديدة أكتب فيها قصصاً عن الماضي. الوقت خدعة!

أنا من مكان يموت فيه الإنسان أكثر من مرة خلال حياته فهل أستطيع أن اسميه وطناً؟ أتذكر ما كتبه غسان كنفاني في تعريفه للوطن "أتعرفين ما هو الوطن يا صافية؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله." الجميع يعرف هذه الجملة والجميع يكررها، فما الذي عليه أن يحدث يا غسان لتصير هذه البلاد وطناً؟ ربما ألا نخاف الموت فيها إذا ما مارسنا الحياة! هل تعلم أن الحزن قد يصبح مدينة تسكنها وترغب دائماً في الرحيل عنها، لكن ما أن تغادرها حتى تسكنك هي بدورها كلعنة تستقر في روحك إلى الأبد. ما من فكاك من الوطن، إذ أن أصل الإنسان طين! جسدي استمرار للأرض التي أتيت منها أحملها معي أينما أذهب.

أنا فلسطيني سوري من جيل الثمانينات. أنا ومعظم أبناء جيلي لم نكن نعرف من نحن، كبرنا وقد تلقنا من يجب أن نكون. هناك قوالب معدة مسبقاً للجميع، وما عليك سوى تطبيق الشروط لتلتصق في واحدٍ منها. ما كان يناسبني أي من تلك الأدوار المعدة للرجال وللنساء كنت رجلاً عابراً في بلاد يولد أفرادها ويموتون واقفين بوضعية الاستعداد على قدم واحدة.

لم أعرف مسبقاً ما معنى تقاطعات على الرغم من أن حياتي تحتوي عقداً كثيرة. في جلسة لي مع معالجاتي النفسية أخبرتها عن صديقتي التي تشاهد مسلسل الفصول الأربعة كلما أرادت الأكل؟ كيف أنها تجلس ككل المغتربين على عتبة الذاكرة لتستطيع البلع وسط الصور والوحدة. وأخبرتها عني أيضاً كم أشعر بالوحدة. وحدة تختلف عما يمر به الآخرين فأنا أحسن لمكان لم يرغب بي ولم يقبل بي دون قناعي. كان علي يوماً أن أختبئ وراء الكلمات، وأن أكون حذراً في انتقاء ملابسي فلا تكون ذكورية تماماً لأتجنب عدوانية الرفض. في شوارع كل من فيها محقق يبحث عن ضحية ليعلق عليها عجزه عن التغيير. وعن أنني في السويد لاجئ من أقلية عليها أن تتعلم من البداية طرفاً جديدة لتمارس أدق تفاصيل الحياة في بلاد جديدة وباردة تختلف كثيراً عن بلادي. وكيف أنني بين الجالية العربية أعدد من أقلية جنديرية غير مرحب فيها من الكثيرين فيها. فأخبرتني أن هذا يسمى تقاطعية الأقليات، وهو مفهوم يصف تقاطع الطرق التي "تتقاطع" بها أنظمة عدم المساواة القائمة على الجنس والعرق والتوجه الجنسي، والهوية الجنسية، والإعاقة والطبقة. بالنسبة لي كان ذلك الجواب بداية للتصالح مع الواقع، فإن تلفظ الأشياء يعني أن تدرکها. إن أدركي لما أمر به خفف عني الكثير من المعاناة، ودفعني للبحث أكثر حول معنى التقاطعات، أسبابها، وأعراضها فصار التكيف أسهل والاختلاط بالمجتمع أخف. لذا بدأت بالكتابة عن تجربتي بمشاركة المعرفة يعني تصغير الفراغ الذي يملأه الجهل والخرافة والأدلجة الفكرية القائمة على صنع القطيع.

في سورية أنت تعيش مع جسديك علاقة سرية كمن يقوم باجتماعات للثورة ضد دكتاتور. أجزاء كثيرة من هويتي كنت قد خبأتها عميقاً داخلي. بدأ الإنكار كآلية دفاعية لتجنب الألم الناتج عن الاعتراف بها. لست أنا فقط، بل الكثيرين غيري من أفراد مجتمع الميم عين. كان على أصحاب الهويات الجنديرية المختلفة أن يحملوا قلوبهم على ظهورهم حقائب ظهر، مضطرين للمغادرة صوب أي دفة هرباً من الوصم الاجتماعي.

يرتبط الوصم الاجتماعي بعوامل عديدة كالتدين، الأبوية، العادات الاجتماعية. لكنه يتأثر بدرجة كبيرة بالمستوى الاقتصادي للفرد والطبقة الاجتماعية التي ينتمي لها. أفراد مجتمع الميم عين من الطبقة المخملية والتي تعد أقلية أيضاً وسط مجتمع يأكله العوز لأبسط مقومات الحياة (لكنها أقلية مهابة) تحميهم أموالهم في هذا المجال كما في مجالات عديدة، وبخشاهم الشارع الذي يربط المال بالسلطة. أما بالنسبة للفقراء منهم وبالأخص أولئك الذين لم يكملوا تعليمهم تدفعهم الحاجة المادية للعمل في الحرف والمهن التي يحكمها الشارع بأعراف ذكورية، فلك أن تتصور الخطر الذي تتعرض له امرأة عابرة إذا ما فرضت عليها الظروف العمل في ورشة دهان! وهذا ما حدث مع صديقة لي اضطرت أن تطلق لحيه لتخفي نعومتها خوفاً من التحرش والتنمر. عدم قبول أرباب المهن بالعاملين من مجتمع ميم عين يدفع بالبعض منهم للعمل في بيع الجنس لاسيما للعابرات منهم وهنا تنشأ مشكلة جديدة ألا وهي عدم القدرة على تلقي العلاج في حال الإصابة بالأمراض إما بسبب العوز المادي، أو الخوف مما قد يتعرض له المريض من ملاحقة أمنية.

كما أن للأغنياء منهم أيضاً دوائرهم التي تسمح بطاقتهم البنكية بدخولها من مقاه أو جامعات يختلطون بها بمن يشبههم، وبمن نال فرصاً بالتعليم أفضل بكثير ممن تعلم في المدارس الحكومية حيث البيئة المعززة لتنميط الأدوار الجندرية.

لهؤلاء حظوظاً أوفر في تلقي العلاج، السفر، والتعلم باللغة الانكليزية أو الفرنسية. لا يخفى على أحد أهمية عامل اللغة في الحصول على مصادر علمية تتيح التعريف بالمثلية الجنسية ازدواجية الميول والعبور الجندري. في مجتمع لا يملك أدنى أساس من الثقافة الجنسية. حيث تتجاهل المناهج التعليمية في المدارس تثقيف الطلاب بالمعرفة المطلوبة ويعتبر الحديث في الجنس تابو لا يجب تجاوزه. ليتم التوجه صوب الانترنت للحصول على الأجوبة. للأسف تفتقر المصادر باللغة العربية للكثير من المنهجية العلمية، البحوث، والمنطقية في تناول هذه القضايا. فإذا ما جربت البحث باللغة العربية عن المثلية الجنسية، العبور، الكويرية، وغيرها من التصنيفات وجدت مئات المواقع التي تجرم وتقيم وتهين أفراد هذا المجتمع معتمدين على الحرام والعرف دون حضور للعلم أو الطب في هذه المنصات.

القليل من هذا الواقع تم تغييره بعد الثورة والأحداث التي تلتها. تم كسر حاجز الخوف لأول مرة. هذا الصدع في جسد القلب الواحد والنهج الواحد نصب مرآة أمام عيون الناس فأبصروا أنفسهم خارج السياق! لا يُطلب من الثورات أن تنتصر. كما لا يمكن التنبؤ بمخاضاتها متى تبدأ؟ إلى أين تقود؟ أو متى تنتهي؟ هي انفجار حتمي وعفوي تقود إليه الكثير من الاحتقانات والعوامل يتسبب بالعديد من الخسارات والمكاسب لكنه بكل الأحوال يحمل التغيير.

أمام الخسارات الجماعية، الخسارات الكبرى يتصلب القلب ويصبح من السهل الاعتراف. معرفة الذات تؤدي للاعتراف بها، أن تعرفها حقيقة بعيداً عما زرعه الآخرين فيك من تقييمات وأحكام لأفكارك ومشاعرك يجعلك تحبها. في بلادنا لم نتعلم كيف نحب أنفسنا، بل تعلمنا كيف نخافها، كيف نُسكت تساؤلاتنا ونعتبرها شر، كيف نختبي خلف أصابعنا مرددين امشي الحيط الحيط وقول يا رب السترة. الحرب هدمت كل الجدران إلا هذا! لازل الكثيرون يحملونه على أكتافهم بظهور منحنية لا تجرؤ على الإبصار. تكشف اليوم عن أكتافنا المأكولة و نعرف جيداً أننا كلنا دفننا الثمن.

ورد زراع